العنصر والحضارة

الدكتور قيس النوري
مدرس قسم الاجتماع
كلية الآداب

يعتبر العنصر "Race" من المواضيع التي اثارت جدلاً واسعاً في مختلف الاوساط • ورغم تفرغ الكثيرين من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع والوراثة "Genetics" لدراسته وتقديم البحوث المفصلة عنه ، فهو لا يزال مقترناً بالتناقضات والمفاهيم التي لا تمت لواقعه بصلة • ولعل من آثار هذه المفاهيم العنصرية المشوهة هو ما نسمع او نقرأ بين حين وآخر عن الاضطرابات وحالات التوتر التي تتعرض لها بعض المجتمعات نتيجة لاختلافات العنصر في سكانها وتأكيدهم على هذه الاختلافات والتحزب لها •

ويظهر قلق الاوساط الاكاديمية من خطورة التحيز العنصري في العالم المتحضر في النشرات والمذكرات والتصريحات العامة التي تنشر في اوقات مختلفة • واصدق مثل على هذا القلق هو مذكره الجمعية الانثروبولوجية الامريكية لهيئة الامم المتحدة التي لخصت فيها وجهة نظرها المتصلة بحقوق الانسان وبضرورة حذف العنصر كاساس لتقييم المجتمعات • وعملت تلك المذكره على تصحيح بعض الانطباعات الخاطئة عن العناصر البشرية • ونفس المحاولة جاءت من الجمعية الامريكية لتقدم العلم American Association for the Advancement of Science حين اجتمع ١٣٠٠ فرد من اعضائها واصدروا نشرة عامة تهدف لوضع حد للتفاسير اللاعلمية التي تشوه مفهوم العنصر ، واكدوا فيها على اهمية تحرر العلم من قيود العنصر والتعصب الاقليمي والعقائدي كشرط لازدهار الفكر والانجازات العلمية[1] •

---

(١) راجع Herbert I. Seligmann. *Race Against Man*, Van Rees Press. New York. 1937, P. V. (Introduction).

ان الاقطار المتجانسة نسبيا من الناحية العنصرية لا تشعر بما يمكن ان ينتج من استغلال الاختلافات العنصرية من مشاكل • ولكن هذه المشاكل هي امور تضايق الملايين من البشر في عدة مناطق من العالم • فنحن لا نجهل بعض الاحداث القريبة التي وقعت في عالمنا المتمدن ولاتزال تحدث حتى هذا الوقت • ولعل الصراع بين الزنوج والبيض في الولايات المتحدة ، والافريقيين والملونين مع حكامهم البوير في افريقيا الجنوبية ، والهنود الحمر والغزاة البيض في الامريكتين والصينيين المقيمين في ماليزيا وسكانها الاصليين يمثل جزء من مجموعة اكبر من حالات التنافر والاحتكاك بين العناصر •

ورغم أن العنصر حسب تحديد المختصين هو مسألة بيولوجية صرفة لا تتعدى وراثة جماعة بشرية معينة لخصائص جسمية مشتركة تجعلها متشابهة في المظهر الخارجي ومتميزة عن الجماعات الاخرى المختلفة عنها في وراثتها العضوية ، فان الآراء عن العنصر قد أخذت صوراً شتى بحيث أن هذا المفهوم صار يعاني من كثرة ما حشر فيه من اعتبارات ذهنية ونفسية واجتماعية لا تمت له بصلة •

وينطبق مفهوم العنصر بشكل قريب على الجماعة البشرية الصغيرة التي يتشابه اعضاؤها بيولوجيا نتيجة عزلتها عن التأثيرات الوراثية الخارجية وبحكم وحدة نسبها ''Descent'' • فعوائق الهجرة والاتصال الخارجي تقوي الفروق بين العناصر وتساعد على استمرارها • ولكن عندما تشترك جماعات عنصرية مختلفة في بقعة جغرافية واحدة فان تقاربها يعمل بمرور الزمن على ازالة اختلافاتها العنصرية بصورة تدريجية • ولاشك أن تاريخ البشرية حافل بهجرات الجماعات الانسانية التي ادى اختلاطها ببعضها الى تحول التكوين البايولوجي لسكانها بحكم ما وقع بينها من تزاوج ''Inbreeding''

وتكاد بعض الجماعات البدائية تنفرد بكون اعضائها يرتبطون برابطة القرابة الدموية ''Blood Kinship'' وباعتماد ولائهم الجماعي على هذه الرابطة • ولكن المجتمعات الكبيرة القديمة التي تحولت الى أمم في نهاية العصور الوسطى لم يكن بمقدورها الاستمرار على تعقيب العلاقات الدموية بين سكانها نتيجة لتنامي

اعدادهم وبسبب تنقل واختلاط افرادها الامر الذي منعها من التأكيد على انحدارها من جد واحد •

لقد بدأت الافكار العنصرية المتعصبة بالظهور في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين • ولعل أحد أسباب ذلك هو التقدم الهائل الذي احرزه علم البايولوجي على يد دارون ومندل وباستور ولستر وغيرهم من اعلام تلك الفترة • فقد اثملت مكتشفات هؤلاء عقول الناس • وكان من الطبيعي أن يعتمد الفكر على المفاهيم البايولوجية في تفسير الغاز الفروق السلوكية الموجودة بين الافراد والجماعات • وصارت التفاسير تؤكد على « الصلة الوثيقة » بين الظواهر البايولوجية التصيرية "Biological Processes" والظواهر الاخرى ، وتتخذ من هذا الاتصال الافتراضي منطلقاً لدراسة كل مظهر من مظاهر السلوك الانساني • وهكذا اصبحت هذه المفاهيم العنصرية في مستوى العقائد الراسخة • ومما زاد في قوتها ملاحظة أن النمو الجسمي يواكب النضج العقلي "Mental Maturity" في شخصية الانسان ، واعتبر ذلك (دليلا) على أن منزلة الرشد تتضمن النضج الجسمي والنضج الاجتماعي • واعتبرت العمليتان جزئين تابعين لنفس الظاهرة ، الا وهي ظاهرة التصير البايولوجي • ولكننا نعلم أن الحيوان البشري قد ينضج جسمياً دون امتلاكه القدرة على الكلام او بعض الخصائص الحضارية الاخرى • فالفرد لا يصبح ناضجاً من الوجهة الاجتماعية كنتيجة حتمية لنضجه البايولوجي وانما نتيجة لاشتراك عوامل التنشئة الاجتماعية في غرس الخبرات والمعارف والمواقف في نظام شخصيته •

وتظهر المبالغة في التأكيد على دور القوى البايولوجية ايضاً في بعض الآراء الشائعة عن مختلف الجماعات البشرية • فاختلاف العنصر وعادات الحياة سوية بين جماعة وأخرى قد غذى الاعتقاد بأن الاختلاف بهذا الشكل المقترن يرجع الى عامل الوراثة البايولوجية المشترك • غير أن الفحص العلمي يظهر خطأ هذا الافتراض • والدليل على ذلك هو أن شخصيات الجماعات المتشابهة عنصرياً والتي انفصلت عن بعضها بسبب الهجرة هي الاخرى تختلف في كثير من نواحي حياتها الذوقية والفكرية والاجتماعية • وخير مثل على ذلك سكان استراليا وكندا

وبريطانيا • كما يختلف سكان قطر ما عن سكانه الاقدمين رغم وحدتهم العنصرية • وليس هناك من ريب في أن الطفل الذي ينقل الى مجتمع يختلف عن مجتمعه عنصرياً يتبنى جميع مقاييس المجتمع الجديد بحكم نشوئه فيه ويصبح الطابع العام لشخصيته اكثر تشابهاً مع افراده منه مع سكان مجتمعه الاصلي •

ان قانون الوراثة "Inheritance Law"، الذي اعتمد عليه مفهوم العنصر، قد اسيء فهمه واستعمل باسلوب غير علمي • ويتضح هذا الانحراف في تطبيق مفهوم الوراثة البايولوجية للافراد على مجتمعات بكاملها • والاكثر من ذلك أن البعض صار يصنف المجتمعات الانسانية الى مجموعات عنصرية معتمداً على مقومات غير بايولوجية ، الأمر الذي ادى الى تشوية معنى العنصر • ويظهر هذا الاتجاه ببعض التسميات المغلوطة « كالعنصر الآري » "Aryan Race" الذي يشير الى مجموعة لغوية و « العنصر السامي » الذي يماثله في المعنى ، رغم افتقارهما لوحدة العنصر • وهذا خلط واضح بين اعتبارات لغوية واعتبارات بايولوجية[٢] • ونفس الخطأ ينطبق على الخلط Confusion بين القومية والعنصر ، كأن يقال العنصر الايطالي بدلا من الجنسية الايطالية أو الحضارة الايطالية • وقد يرتكب الخطأ نفسه في مجال الاديان فيطلق مصطلح العنصر على مجموعة دينية فيقال «العنصر اليهودي» ـ كما هو شائع مثلاً ـ رغم أن اليهودية ديانه وليست عنصراً • فمعتنقوا هذه الديانة موجودون في مجتمعات تختلف بشكل هائل في عنصرها ولغتها ونظمها السياسية • وتظهر حقيقة التنوع العنصري في باقي المجموعات الدينية ، اذ لا يصح أن نستعمل مصطلح « العنصر الاسلامي » لأن المسلم قد يكون في مظهره البايولوجي مغوليا او قوقازياً او زنجياً • وان الصلة التي تجمع المسلمين رغم تعدد عناصرهم هي العقيدة الروحية الواحدة •

ان اصحاب العقائد العنصرية يميلون الى اعتبار الخصائص المميزة للعنصر في حالة من الثبوت "Fixity" المطلق • ويتضمن هذا الاتجاه عدم الاعتراف بتأثير العوامل البيئية في المظهر الجسمي للانسان • غير أن فحص هذا الاتجاه

---

(٢) Clyde Kluckhohn, *Mirror for Man*, A Premier Book, Fawcett World Library, 1957, Pp. 87—88.

قد اثبت عدم واقعيته • ولعل اول من دحض هذا الافتراض هو العالم الامريكي الانثروبولوجي فرانس بواس "Franz Boas" في دراسته للمهاجرين الصينيين في الولايات المتحدة الامريكية • فقد اكتشف فرقاً واضحاً في طول القامة والنسبة الرأسية "Head Index" بين جيل الاجداد وجيل الابناء وجيل الاحفاد لهؤلاء المهاجرين رغم وحدة اصلهم • ان تفسير ذلك يجب أن يستعين بفهم الظروف المعيشية العامة في الولايات المتحدة والتي تختلف عن تلك السائدة في الشرق الاقصى ، الوطن الاصلي لهؤلاء •

وتقسيم العالم الى مجموعات عنصرية موزعة في اقاليم جغرافية محددة هو اسلوب تقليدي درج عليه اصحاب النظريات العنصرية • واعتمد هؤلاء على لون البشرة Skin Colour وشكل الشعر والعيون والشفاه وطول القامة والنسبة الرأسية وغيرها من الصفات الجسمية • وتعطي هذه الدراسات انطباعاً بأن العناصر البشرية الرئيسية (المغولي Mongoloid القوقازي Caucasoid والزنجي Negroid) متميزة بصورة حادة وفاصلة • انه الى جانب خلو هذه الدراسات تقريبا من الفوائد العلمية والعملية (لأنها لا تتعدى التركيز على الظواهر الجسمية الخارجية Phenotypic Features) ، فهي لا تهتم بالتنوع الموجود في العنصر الواحد والتداخل "Overlapping" الحاصل في كثير من الصفات العنصرية بين مجموعات مختلفة العناصر • ان عدم الاهتمام بهذا التنوع والتداخل هو من رواسب فكرة « العنصر النقي » "Pure Race" التي قال بها بعض المفكرين والتي ابطلها العلم الحديث اثر ظهور نظرية مندل "Mendel" في الوراثة • فعلماء الوراثة والانثروبولوجية صاروا يؤكدون في الوقت الحاضر على ظاهرة انتشار الجينات "Gene Distribution" جغرافيا والآثار التي تترتب على ذلك في جوانب الحياة المختلفة للسكان في العالم • ومن الاكتشافات الطريفة في هذا الميدان هو تصريح العالم الانثروبولوجي المعاصر اشلي مونتيكو "M. F. Ashley-Montagu" بأن واحداً بالمئة فقط من مجموع العدد الكلي للجينات الداخلة في التركيب الوراثي للعناصر البشرية تختلف عن بعضها[٣] •

---

(٣) المصدر السابق ص ٩٦ Clyde Kluckhohn, *Ibid*, P. 96.

رغم أن الدراسات العنصرية قد اعتمدت على الصفات الجسمية الخارجية للانواع البشرية ، الا أنها عمدت الى استخلاص خصائص نفسية وذهنية ومزاجية محددة تناسب كلا من هذه الانواع ، مفترضة وجود صلة بين المظهر البايولوجي والمستوى الذكائي • وقد ادى هذا الافتراض الى اضفاء صفة الذكاء على بعض العناصر وتجريد البعض الآخر منها • ويبرز اسم الكونت غوبينو "Gobineau" و هـ • س • شمبرلن "Chamberlin" و « دريزمن » Driesmann و « لبون » Le Bon بين اسماء من دافعوا عن « مبدأ » عدم تكافؤ العناصر في القدرات والقابليات • واعتبر غوبينو « العنصر النورديكي » "Nordic Race" « اذكى » و « انبل » العناصر[٤]• ولكنه لم يحدد الاسس التي اوصلته الى هذا الاستنتاج الغريب • والطريف أنه اعتبر سكان جنوبي اوربا (رغم أنهم ينتمون حسب التصنيف الحديث الى العنصر القوقاسي الذي ينتمي له النورديكيون) اوطأ من النورديكيين وينسب ذلك لاحتكاكهم بسكان افريقيا وآسيا • وقد لاقى ادعاؤه هذا معارضة الكثيرين • فاللورد رغلان (Lord Raglan) قد اوضح ان النورديكيين لم يؤسسوا مدنية اصيلة خاصة بهم ، بل اقتبسوا العديد من الجوانب الحضارية من جيرانهم سكان جنوبي اوربا •

من الواضح أن القول بعدم تكافؤ "Inequality" العناصر البشرية يقرر أن مستوى ذكاء الفرد يتحدد بنوع العنصر الذي ينحدر منه فيرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه • وقد استغلت هذه الفرضية باساليب متنوعة كان ابرزها الاستعمار الغربي الذي فرض على مجتمعات غير اوربية مبرراً سيطرته باعتبار هذه المجتمعات في مستوى ذكائي واطيء لا يؤهلها لقيادة نفسها • ويظهر استثمار نفس المبدأ في دعم العبودية[٥] في المجتمعات الطبقية غير المتجانسة عنصرياً، كما حصل فعلاً في الولايات الجنوبية من أمريكا •

---

(٤) H. J. Seligman, op. cit, P. 28.

(٥) E. Huntington, "*Mainsprings of Civilization*", A Mentor Book. The New American Library, P. 48.

ان اسطورة عدم تكافؤ العناصر قد استحالت الى برنامج منمق نسجته مخيلة المفكر الانكليزي فرانسس غالتون "Franciz Galton". وقد اطلق عليه مصطلح "Eugenics" • ويعتقد هذا الرجل أن جميع الفروق البشرية هي نتيجة الوراثة الطبيعية لا الاكتساب • وفي رأيه أن طبقة النبلاء الانكليز قد وصلت منزلتها الاجتماعية « المرموقة » بسبب اتصافها « بارقى » الخصائص البيولوجية الموجودة في الشعب الانكليزي(٦) • وقد انكر اهمية الظروف الاجتماعية في تحديد شكل ومستوى انجازات الفرد واعتبر نجاح الانسان معتمداً كلياً على ما يكمن فيه من قوى بايولوجية • وقد اكد على ضرورة تدخل السلطة في موضوع الزواج للحيلولة دون زواج « الفاشلين اجتماعياً » • لأن فشلهم – حسب اعتقاده – دليل على رداءة تركيبهم الوراثي • ففلسفة غالتون تصرف النظر عن ضرورة اصلاح الظروف والعوامل الخارجية التي تعيق الناس عن تحسين مستوياتهم الاجتماعية والثقافية لأنها اعتبرت ظروف الفرد الاقتصادية والاجتماعية نتيجة طبيعية لتركيبه البايولوجي •

لاشك أن تحديد المستوى الذكائي للجماعات البشرية المختلفة ينطوي على تعقيدات كبيرة • فتقييم المنجزات التاريخية "Historical Achievements" للمجتمعات كاساس للذكاء – مثلاً – هو أمر بالغ الصعوبة ، لعدم سهولة الاتفاق على وحدات قياسية "Standards" لاجراء التقييم بصورة موضوعية • فقد يؤكد البعض على الاسس الفكرية والفلسفية ، بينما يفضل البعض الآخر الجوانب الفنية الجمالية ، اما البعض الثالث فقد يهتم بالمقومات التكنولوجية • كما أن التقييم سيصطدم بعدم تساوي معلوماتنا اتاريخية عن جميع المجتمعات ، الأمر الذي يجعل المقارنة غير متكافئة • فالحضارات الافريقية الزنجية القديمة معروفة قليلا للناس وهي لذلك لا تثير كبير اعجاب بالقياس لحضارة الصين القديمة – مثلاً – التي يُعرف عنها الكثير في العالم • ومع ذلك فان جامعة « تمبكتو » Timbuktu الافريقية التي كانت ترعى شئون الفكر في القرن الثاني عشر تشابه في بعض

---

(٦) L. C. Dunn & T. Dobzhansky: *"Heredity, Race and Society"*, American Book, The New American Library, P. 14.

صفاتها الوظيفية الجامعات الاوربية المعاصرة[٧] . كما ينسب للحضارات الافريقية السحيقة فضل تطوير فن تعدين الحديد . ومهما تكن نتائج المقارنة في هذه الحالة فان الانثروبولوجيين يعتقدون بأن الضمور الكمي للحضارة الزنجية الافريقية القديمة بالقياس للحضارات الاخرى يعود الى عوامل العزلة الجغرافية وليس الى الخصائص العنصرية لسكان تلك القارة . ومن البراهين التي تدعم عدم اعتماد الانجازات الحضارية على العنصر هو تذبذب المنزلة الحضارية للمجتمع بالقياس لغيره من المجتمعات رغم الاستقرار النسبي للعنصر . فالحضارة العراقية ـ مثلاً ـ كانت في قمة الحضارات ايام السومريين ثم فقدت مركزها ايام الحكم الفارسي الكسروي واستعادته ثانية في عهد العباسيين (خصوصا في عهد الرشيد) وانخفضت ثالثة اثناء الحكم المغولي والتركي والبريطاني . وهي الآن ساعيه لاستعادة مركزها المفقود . لاشك أن هذا الصعود والهبوط الحضاري في العراق لا يرجع الى تبدلات بايولوجية في جينات السكان ، بل الى عوامل مستقلة عن اجسام العراقيين. ان هذه الظاهرة الحضارية المتذبذبة تنطبق على مجتمعات عديدة . فاين مركز ايطاليا الحضاري اليوم (وهي دولة مغمورة) من مركزها في عهد النهضة الاوربية وقد كانت تمسك بزمام القيادة ؟ وماذا جرى لاسبانيا التي كانت تحكم قارة امريكا اللاتينية بكاملها وهي الآن من الدول الغربية الصغرى في مجالات التكنولوجيا والعلم والسياسة وغيرها من ميادين المدنية ؟ فلو كان المستوى التمدني ينتج من التركيب العنصري لما تعرضت حضارات المجتمعات لهذا التأرجح ، بل لكانت مستقرة بدرجة استقرار منزلة الكائنات الحية الاخرى . فمنزلة الاسد بصفته ملك الغاب باقية بهذا المستوى بالقياس لغيره من حيوانات الغاب ، لأنها نتيجة طبيعية لتركيبه التشريحي والفسلجي فحسب . ولم تتعرض لظاهرة الذبذبة التي عانت منها الكثير من المجتمعات البشرية خلال الآلاف الماضية من السنين .

اما اختبارات الذكاء "Intelligence Tests" المستعملة في الوقت الحاضر (رغم ما يدور حولها من جدل) فقد اظهرت أن العنصر لا يصلح لأن يكون

---

(٧) C. Kluckhohn, op. cit. P. 100.

اساساً لتحديد ذكاء الفرد • وقد وجد في بعض الاختبارات الامريكية ان معدل ذكاء اطفال زنوج « ولاية تنسي » كان بدرجة ٥٨ مقابل ١٠٥ درجات سجلتها عينة من اطفال زنوج مدينة لوس انجلس[٨] • كما تفوق بعض الزنوج من شمالي الولايات المتحدة في اختبارات الجيش على زملائهم البيض من جنوبي الولايات المتحدة • ويعود ذلك على الأكثر الى ارتفاع المستوى العلمي والثقافي في الولايات الشمالية بمقارنتها بالولايات الجنوبية •

وليس ادل على عدم اقتصار الذكاء على عنصر دون آخر هو أننا نقرأ في صفحات التاريخ اسماء العباقرة الذين نموا وترعرعوا وقاموا باروع انجازاتهم في مجتمعات مختلفة العناصر • وهل من شك في انتفاء الوحدة العنصرية بين غاندي الهندي وكونفوشيوس الصيني وحمورابي البابلي وباستور الفرنسي ولوثر كنج الزنجي الامريكي ومئات غيرهم من العباقرة • فمن السهل علينا الاعتراف بعبقرية هؤلاء ولكن من الصعب وضعهم في درجات ذكائية متفاوتة ترتكز على اساس عناصرهم •

العنصر والحقد الاجتماعي :

ان الاختلافات العنصرية لا تؤدي الى خلق التوتر الاجتماعي "Social Tension" الا اذا صاحبتها تنشئة اجتماعية توحي للطفل بالمواقف العنصرية السلبية • ويختلف الحقد العنصري Racial Prejudice في درجة حدته باختلاف تأثير هذا الايحاء • وقد ساهمت اقلام بعض المفكرين المتحيزين في اثارته • فالباحث الامريكي مادسن غرانت "Madison Grant" هو أحد المساهمين في بعث الافكار العنصرية الحاقدة في مستهل القرن العشرين • فقد ذكر في كتابه المسمى (زوال العنصر العظيم) "The Passing of Great Race" الذي نشر عام ١٩١٦ ان المهاجرين الجدد من غير النورديكيين يتميزون بضعف الوراثة والركاكة الذهنية ، وعمم هذه الصفات حتى على اولئك الذين قدموا من البلقان وحوض البحر المتوسط وبولندا • واعتبر وجودهم في الولايات المتحدة خطرا يهدد الجوانب

---

(٨) C. Kluckhohn, op. cit. P. 100

الاجتماعية والاخلاقية والسياسية للحياة الامريكية[٩] • وقد لاقى هذا الكتاب ترحيبا في بعض الاوساط لأن النزعة العنصرية كانت على اشدها • ولم يكن البحث العلمي قد بلغ آنذاك درجة من الرقي في مجال العنصر ليظهر مآخذ تلك النزعة بصورة فعالة • ان تأييد تلك الآراء اللاعلمية لم يقتصر على بعض الاوساط الشعبية بل تعداها الى الاوساط الرسمية • وتتجلى الحقيقة الاخرى في تقارير وكالة الهجرة 'Immigration Commission' الامريكية التي بررت التمييز العنصري في مجال تحديد نسبة المهاجرين من الاقطار الاجنبية • وطلبت عدم تشجيع هجرة بعض القوميات كالروس وسكان جنوبي اوربا باعتبارهم (حسب تلك التقارير) يمثلون عناصر غير قديرة بالقياس للعناصر الاوربية الاخرى[١٠] •

ويبدو أن الحقد العنصري يتضاعف بصورة خاصة في اوقات الازمات والحروب • فالروح العنصرية قد بلغت ذروتها – مثلا – في الولايات المتحدة عندما قررت الحكومة الامريكية عزل جميع المواطنين الامريكان المنحدرين من اصل ياباني في معسكرات خاصة في مناطق صحراوية محددة طيلة فترة الحرب العالمية الثانية ، متذرعة بميلهم للتآمر على سلامتها لصالح وطنهم الأم (اليابان) • ولم تتخذ اجراء مماثلاً ضد المواطنين المنحدرين من اصل الماني رغم كون المانيا حليفة اليابان في الحرب • ولا يتردد العنصريون عن نقض تعميماتهم اذا اقتضت الضرورة • فالحكومة الالمانية النازية التي كانت تمقت العنصر المغولي الى جانب غيره من العناصر غير النورديكية أو « الآرية » صارت تسمي احلافها اليابانيين « بالآريين الصفر » ، رغم عدم جهلها لعنصرهم المغولي • ونفس التناقض يظهر في النعوت الطيبة التي اسبغها الامريكان على اليابانيين في سنة ١٩٣٥ حين وصفوهم « بالتقدمية » والذكاء والجدية ، ثم عادوا وانقلبوا عليهم بعد سبع سنوات على اثر قيام الحرب مع اليابان فصاروا يسمونهم مخادعين ودساسين • ويتكرر الامر مع الصينيين عندما احتاجتهم كالفورنيا لتقديم العمل الرخيص وصار سكانها ينسبون لهم صفات الادخار والمثابرة والرزانة والتنظيم ، ولكن حالما صدر «قانون الاستثناء»

---

(٩) Oscar Handlin : *Race and Nationality in American Life.* A Doubleday Anchor Book, 1957. P. 77.

(١٠) Oscar Handlin, *Ibid.* P. 79

بحكم زيادة البطالة وانتفاء الحاجة للصينيين صار سكان الولاية ينسبون لهم اسوء الصفات[١١] •

التكيف العنصري :

اذا ايدنا ادعاء فرويد بأن اول الاشياء التي يحبها الانسان هي كيانه الجسمي "Physical Self" – ويطلق على هذا الميل – "Primary Narcissism" فانه يمكننا القول بأن الانسان العادي يعتبر مظهره العنصري امرا مقبولا وطبيعياً• وهو على اساس هذا الرأي ينظر بعين الازدراء للافراد الذين يختلفون عنه في صفاتهم الجسدية • ان التجانس العنصري في بعض المجتمعات (كما هي الحال في المجتمعات الصغيرة المعزولة) ينمي اعجاب الفرد بمظهره البايولوجي ما دام يمثل المظهر العنصري الاساسي الذي يشاركه فيه بقية اعضاء المجتمع •

ولكن هذا الأمر يتبدل بشكل حاد في مجتمع تختلف فيه العناصر وتتفاوت المنازل الاجتماعية بشكل هرمي • اذ يصبح المظهر العنصري للفرد مصدر تحفيز وفخر اذا كان ينتمي للعنصر المسيطر المتمتع بدرجة عالية من الجاه الاجتماعي ، وبالعكس فان خصائصه الجسمية الخارجية تشكل عائقاً يمنعه من التمتع بما يصبو اليه العضو الاعتيادي في المجتمع المتجانس • فالزنجي في جنوبي الولايات المتحدة – مثلاً – يعاني من ازمة نفسية حادة تستدعي درجة كبيرة من تكيف الشخصية • فسواد البشرة الذي يعتبر صفة الافراد الاسوياء في وطنه الأم (افريقيا) هو جانب في شخصيته يجعله بعيدا عن الفخر بذاته والاعتزاز بها • فصفاته البايولوجية الخارجية هي جزء من بناء شخصيته الكلي ، وهو كأي انسان يريد أن يعتد بذاته بايولوجيا وذهنيا ولكنه لا يستطيع • فظروفه الاجتماعية – من زاوية القوى العنصرية المعادية – تطالبه بالتسليم برقي "Superiority" منزلة العنصر الابيض وانخفاض "Inferiority" مكانة عنصره • وذلك يعني الضغط عليه ليقبل بازدراء كل شيء في وجوده يمت لعنصره بصلة • وقد قطع الزنجي الامريكي شوطاً بعيداً في تكييف نفسه باتجاه مقاييس البيض ، ويظهر ذلك ليس بقبوله لهذه المقاييس فقط بل وفي تقليده ومحاكاته للامريكان البيض في أكثر

(١١) C. Kluckhohn, op. cit. Pp. 99—100.

شئون الحياة • ويظهر ذلك بصورة خاصة بمجاهرة الزنوج بتفضيلهم لملامح البيض ولون بشرتهم ورغبتهم القوية بالزواج من البيض • ويذكر الاستاذ جون دولارد الذي اجرى دراسة حقلية لزنوج الجنوب الامريكي أن هذه الحقائق تظهر في الفحوص النفسية الطبية التي اجريت على الزنوج المصابين بمرض الشيزوفرنيا "Schizophrenia" • فقد كشفت الفحوص أن بعضهم يعتقد بأن الزنجي سيصبح ابيضاً في الحياة الاخرى • ويبدو أن هذه الفكرة من الناحية التحليلية تعكس في اعماق الزنجي اقتران غسل الذنوب وابيضاض البشرة•

ان التكيف النفسي الذي تفرضه ظروف الاقليات العنصرية (كالاقلية الزنجية الامريكية) لا يصل درجة تزول معها عوامل التوتر بين هذه الاقليات والجماعات المسيطرة • وقد يأخذ التوتر في العلائق العنصرية شكل التصادم او الاعتداء • ولكن اعتداء اعضاء العنصر المستضعف على العناصر الاقوى يكون أقل وقوعاً من اعتداء الاخيرة عليه ، بحكم ردود الفعل الانتقامية التي يتوقعها اعضاؤه من جانب الجماعات القوية • ان هذه الموازنة في العلائق العنصرية قد تؤدي الى وقوع الاعتداء داخل الجماعة العنصرية الواحدة "In-group Aggression" اكثر من وقوع اعتداء اعضاء هذه الجماعة على اعضاء الجماعات العنصرية الخارجية •

ان فعل الاعتداء ـ حسبما يذهب اليه بعض العلماء[١٢] ـ غالبا ما يدفع اليه لانسان نتيجة لعامل الخيبة "Frustration" • ولما كانت حياة كل انسان لا تخلو من تجارب الخيبة والفشل ، فان الميل للاعتداء هو شيء موجود في شخصية الكائن البشري مهما كان عنصره • ولكن هذا الميل يظهر بقوة كلما لفحت الانسان نار الخيبة فيبحث عن شيء يفرغ فيه سُخطه ، وغالبا ما يكون الشيء المعتدى عليه ذا صلة بعوامل الخيبة • اما اذا كان عامل الخيبة أو المسئول عن وقوعها بشكل ما شخصا او جماعة متسلطة فان الفرد الخائب ينقل نقمته من هذا العامل الذي يخشى سطوته الى فرد آخر ضعيف قد لا تكون له صله بالفشل•

---

(١٢) John Dolland. *Caste and Class in a Southern Town.* A Doubleday Anchor Book, New York. 1949, P. 267.

ان تحـــويل "Displacement" او نقل الاعتداء من الطرف الذي حفزه الى طرف لم يشترك بهذا التحفيز اساساً هو من الظواهر التي يتكرر وقوعها ـ كما تشير بعض الدراسات ـ بدرجة كبيرة في الجماعات العنصرية المغلوبة على أمرها . وتتمثل هذه الظاهرة بوضوح في المجتمعات الزنجيـــة المنتشـــرة في جنـــوب الولايات المتحدة(١٣) .

اتجاه جديد في العنصر :

لاشك أن للانثروبولوجيا وعلم الوراثة الفضل الاكبر في تطوير ميـــدان العنصر كحقل للدراسة الموضوعية الخالية من الاهواء والتحيز . وقد نما هذا الحقل نمواً مدهشاً يتناسب والجهود الضخمـــة التي بذلت فيه . ولعـــل ابرز انجازات الباحثين في هذا المجال هو تصـــديهم للحركة العنصريـــة المتعصبة التي اشـــتدت بصورة خاصة في اوربا وأمريكا في أواســـط القـــرن التاســـع عشر واوائل القرن العشرين . وما من شك أن نجاح هؤلاء العلماء في دحض مفتريات العنصريين المغرضين واثارة شكوك الرأي العام في ادعاءاتهم هو من انتصـــارات العـــلم الهـــامة .

على أن الدراسات الاكاديمية للعنصر بدأت بشكل بسيط متواضع لخلو هذا الميدان من نظريات علمية سابقة . وكان هدفها تصنيف المجتمعات البشرية الى انواع بايولوجية متمايزة في المظاهر الجســـمية الاســـاسية . ولـــكن المختصين المحدثين(١٤) وجدوا أن هذا التصنيف غير مرضٍ ويجب أن يطور بشكل آخر، لأنه لا يظهر الصلة (اذا كانت موجودة فعلاً) بين المظهر الخارجي البنائي للعنصر وبين الاستعدادات والميول الفسيولوجية لتشبيه . ونظراً لرفض المعاصرين من الاختصاصيين « لاسطورة » تناسق العنصر "Racial Uniformity" فقد صـــاروا يبحثون عن « التنوع الوراثي » "Genetic Variation" في المجموعات العنصرية المختلفة . ونتيجة لذلك ظهرت طريقة جديدة لتصنيف البشر ، الا وهي تقسيمهم

---

(١٣) J. Dolland: *Ibid.* P. 270.

(١٤) W. Boyd. *Genetics and the Races of Man.* Little, Brown and Company, 1950. P. 15.

الى فئات دموية "Blood Groups" • ويعتمد التقسيم على اساس انتشار صنف واحد من بين الاصناف الدموية "Blood Types" الاربعة (A, B, O, AB) في نسبة اكبر من سكان المجتمع الواحد بالقياس لانتشار الاصناف الاخرى • وتظهر جميع هذه الاصناف في كل واحد من المجتمعات التي درست لحد الآن ، ولكنها تختلف في نسبة انتشار كل منها الى الاخرى في المجتمع الواحد •

ويعود الفضل في اكتشاف هذه الاصناف أو الانواع الدموية الى العالم النمساوي كارل لاندشتاينر "Karl Landsteiner" (١٥) • فقد لاحظ أن نقل الدم "Transfusion" من شخص لآخر يؤدي احيانا الى ردود فعل سلبية تصل الى درجة الموت احيانا ، ولكن في حالات أخرى لا تنتج من النقل هذه الانتكاسات • وقد قادت هذه الملاحظة الى اكتشاف أن الناس ينقسمون الى اربعة فئات هي التي ذكرت سابقاً • وان نقل الدم بين فردين من نفس الفئة يخلو من الخطر • كما وجد أن دم افراد الفئة (O) يناسب افراد جميع الفئات الباقية • لذلك سميت فئة (O) « بالمانحين الكونيين "Universal donors" • اما افراد الفئة (A B) فيناسبهم الدم المنقول من جميع الفئات الاخرى لذا اطلق عليهم مصطلح «المنتفعين الكونيين» "Universal Recipients" • ان هذه الاكتشافات تعتبر في غاية الاهمية للدور الكبير الذي لعبته في الميادين الطبية العلاجية • كما ساعدت على دحض فكرة « نقاء العنصر » حيث أن وجود الاصناف الدموية الاربعة في كل مجتمع بشري هو دليل حاسم على عدم صحة تلك الفكرة • فالاكتشافات هذه جاءت كاقرار صريح للنسبية العنصرية "Racial Relativity" •

المغزى الحضاري :

على الرغم من تقدم علم الوراثة والانثروبولوجيا الطبيعية فان الصلة بين العنصر والخصائص الذهنية والاجتماعية لم تتأيد • فليس هنالك من تطابق بين نوع العنصر وشكل النظام الحضاري السائد في المجتمع • وبعبارة أخرى أن وحدة العنصر لا تواكبها وحدة الحضارة • فلو سلمنا بتماثل العنصر المغولي مثلاً فاننا

---

(١٥) L. C. Dunn & T. Dobzhansky. op. cit P. 118.

لا يمكن أن نسلم بنفس الدرجة من التماثل والانسجام في الطابع الحضاري والاجتماعي لمجتمعاته الاقليمية المتعددة • فرغم التماثل الكبير في المظهر الجسمي لسكان اليابان وكوريا والصين ومنغوليا ، الا أن الاختلاف يتجسم بشكل ملحوظ في جوانب حياتهم الاجتماعية واللغوية والدينية والتكنولوجية والسياسية • ونلمس هذا الاختلاف الحضاري لدى غير المغوليين من العناصر • ان اختلاف النماذج او الانماط الحضارية في المجموعة العنصرية الواحدة يدل بوضوح على عدم عنصرية الوراثة الاجتماعية • فلو كانت العوامل البايولوجية اساس انتقال الانماط الحضارية من جيل لآخر لتماثل سلوك اعضاء العنصر الواحد الموجودين في مجتمعات متباعدة ، كما تتماثل شخصيات اعضاء الفصيلة الحيوانية الواحدة المنتشرين في اقاليم جغرافية متفرقة •

ان العناصر البشرية ـ برفع النظر عن درجة تمايزها عن بعضها ـ ليست الا فروعاً تلتقي في اصل واحد الا وهو النوع البشري "Mankind" • ويتميز هذا النوع عن بقية اعضاء المملكة الحيوانية بقدرته على التكيف لطائفة غير محدودة من الظروف الطبيعية • فالانسان على هذا الاساس هو كائن عضوي «غير متخصص» "Generalized Organism" •وهو لذلك يبز جميع الكائنات الحية في مدى تكييف نفسه للبيئة • ولاشك أن عدم تقيد الانسان بتركيبه الوراثي في مواجهة الطبيعة هو العامل الاهم في تنويع انظمة معيشته •

ـ مراجع البحث ـ

1. Boyd, W. *Genetics and the Races of Man.* *Little*, Brown and Company, 1950.
2. Dollard, John. *Caste and Class in a Southern Town.* A Doubleday Anchor Book. New York. 1944.
3. Dunn, L.C. & T. Dobzhansky. *Heredity, Race and Society.* A Mentor Book, The New American Library. 1957.
4. Handlin, Oscar. *Race and Nationality in American Life.* A Doubleday Anchor Book. 1957.
5. Huntington, E. *Mainsprings of Civilization.* A Mentor Book. The New American Library. 1959.
6. Kluckhohn, Clyde. *Mirror for Man.* A Premier Book. Fawcett World Library. 1957.
7. Seligman, J. Herbert. *Race Against Man.* Van Rees Press. New York. 1937.